الفصل الثاني

استعلِ على نفسك

«إذا فشلنا في الحب فشلنا في كلِّ ما سواه»

ويليام سلون كوفن[1]

هل صحيحٌ أن سمّاعة الطبيب تسبغ لمسةً من التيه على سمت أي طبيب؟ لا أدري إذا كانت السمّاعة تجعلني أشعر بأهميتي دوماً، لكنني أعترف أنها ربما تفعل ذلك أحياناً. فقد انتابني شيءٌ من هذا الإحساس عندما قمتُ بزيارة دار الأم تريزا للمعوزين المحتضَرين Mother Teresa's House of Dying Destitutes. وهذا الاسم بحدِّ ذاته جديرٌ بأن يجعلك تطأطئ رأسك خاشعاً. تقع هذه الدار في كلكتّا، المدينة التي تجمع إلى الكثافة السكانية الفقرَ المدقع. ولكي تكتمل صورتها لديك أضفْ إلى ذلك حرارةَ الجوّ اللاهبة وغياب المرافق الصحيّة وشبكات التصريف. يقوم على إدارة الدار راهباتُ البِرِّ والإحسان Sisters of Charity، وهي أخوية كاثوليكية أسَّستها الأم تريزا لتكون مأوى لأولئك الذين أصابهم ما لا يُرجى معه استمرار حياتهم، ولا يجدون من يعتني بهم أو يهتم بشؤونهم. لذلك فهم يمثّلون فعلاً أفقر الشرائح.

obeikandl.com

منذ سنوات تسنّى لي لقاء الأم تريزا بينما كنتُ طوافاً في الهند لبعض شأني، وذلك قبل إنشاء مؤسسة «من القلب إلى القلب» بعشر سنين على الأقل. ورأيتُ بأم العين مدى العطف الذي تمنحه هي ومن معها للفقراء والمرضى. وآليتُ على نفسي أن أعود لأعمل إلى جانبها بطريقةٍ أو بأخرى. وأخبرتُها بعزمي على العودة محمَّلاً بأدوية تخفِّف من آلام هؤلاء المرضى، وقلت إن الدواء ربما يسهم في إنقاذ حياة بعضهم. تبسَّمت وشكرتني وصافحتني، مشيرةً إلى صندوقٍ من الأدوية التي تجاوزت مدةَ صلاحيتها، والمرسَلة من أحد الأشخاص.

قالت: «لدينا بعض الأدوية».

قلتُ: «سأُحضِر المزيد، وأعدكِ بأنها لن تكون أدويةً أمريكيةً غير صالحة».

وقد عدتُ فعلاً، ولكن بعد بضع سنوات، ومعي تسعون متطوِّعاً، وخمسون طنّاً من الأدوية بقيمة نحو اثني عشر مليون دولار، تمثِّل في مجملها تبرُّعاتٍ من شركاتٍ صيدلانية، وليس منها عقارٌ انقضت مدةُ صلاحيته، ومعدَّةً للاستعمال في كلكتّا خِصِّيصى. وأقول إن الأم تريزا كانت مسرورة جدّاً.

على أن غايتنا لم تكن تقتصر على تسليم الأدوية ثم المغادرة وحسب: بل كانت رغبتنا العمل إلى جانب الراهبات لنحقِّق تغييراً في حياة الناس هناك. وعندما أعود اليوم بذاكرتي إلى تلك التجربة أجد أن بعضنا كان شديد الاعتداد بنفسه إلى درجة الغرور، في حين كان المقصد الوحيد من وجودنا هو عمل الخير.

توزَّع فريقنُا إلى مجموعات عملٍ لزيارة مختلف المواقع في المدينة. وتوجَّهتْ مجموعتي الصغيرة إلى دار المعوزين المحتَضَرين وهي تحمل فكرةً كبيرة تتمثل في تخفيف آلام المتألمين. وكان ذلك الموقع هو المكان الذي انطلقت الأم تريزا منه؛ فقد شرعت في عملها ـ وهي المبشِّرة الألبانية الشابة ـ عندما وجدت يوماً امرأةً في الطريق تُحتَضَر. كان مرآها مؤسفاً: قد غطَّتها الحشرات، ولم تمهلها الجرذانُ إلى أن تموت لتقرض جسدها. وكان السابلةُ يمرُّون بها فيسرعون مبتعدين عنها أنفةً وكأنها سَقَطُ متاعٍ منبوذ.

ذُهلَت تلك الراهبةُ الشابة مما رأت، فالتقطت المرأةَ ونقلتها إلى مشفىً محلّي. رفضَ المشفى استقبال المرأة باديءَ الأمر لعدم قدرتها على دفع الأجور، ثم اضطر إلى الموافقة نزولاً على إرادة الأم تريزا وإصرارها، بل وتهديدها بأنها لن تبرح المكان ما لم تُعطَ السيدةُ العلاجَ اللازم. هذه التجربة بالذات حملت الأم تريزا على أن تطلب من السلطات المسؤولة في المدينة وقفَ منشأةٍ للمرضى والمحتَضَرين، شريطة التعهُّد بأن يلقى هؤلاء الرعايةَ اللازمة الكاملة في الأيام الأخيرة من حياتهم. وقد نزلَ الدارَ فعلاً آلافُ المرضى منذ افتتاحها في الأربعينيات من القرن الماضي.

على أن ما شقَّ عليَّ وأمضَّني حقّاً ـ وأنا الطبيب ـ هو أن أرى كثيراً من أولئك المرضى قد ماتوا، ويموتون، من أمراضٍ غير عصيَّةٍ على العلاج؛ فقد وجدتُ أن الزحار من أهم أسباب الوفاة هناك، مع أنها حالة يمكن علاجها بالدواء الصحيح والماء النظيف. في حين توفي آخرون من أمراضٍ دَثَرَت وعادت غير موجودةٍ في بقاعٍ أخرى من العالم.

من أجل ذلك توجَّهتُ إلى دار المعوزين المحتضَرين، واضعاً نصب عينيَّ كلَّ معرفتي الطبية، وفي نفسي شيءٌ أريد أن أقدّمه. وقد وجدتُ في تلك الدار المكانَ الملائم تماماً لكل طبيب، وأردتُ أن أضع هذه المنشأة في غير سياقها؛ فنظرتُ إلى اللافتة التي تحمل اسمها وقلتُ في نفسي: «سأغيِّر هذه اللافتة، وسيكون اسم هذه المنشأة منذ الآن (دار الأمل للأحياء)»، وكنتُ مدركاً لمدى الأثر الذي سيُحدثه عملي هذا.

استَقبلَت الراهبةُ بريسيلا مجموعتَنا بترحاب، وحدَّدت لنا مهماتنا. وعندما التفتت إليِّ قدَّمتُ نفسي على أني طبيب من الولايات المتحدة، واضعاً مسماع الطبيب حول عنقي. وكان واضحاً ضآلة الرعاية الصحية المتاحة في هذا المكان، بل انعدامها كليّاً، ومن ثم فإن أمامنا مهمّةً شاقةً تكاد تداني المعجزة. رحتُ أستعرض في ذهني ما تلقيتُه من تدريبٍ طبي، وأيقنتُ أن هذا المكان في حاجةٍ إلى خدماتي.

قالت لنا الأخت بريسيلا بلهجةٍ بريطانيةٍ رقيقة: «تفضلوا معي». دخلنا جناح الرجال، وهي قاعةٌ واسعةٌ مفتوحة تحتوي على صفوفٍ من الأسِرَّة الخفيفة يستلقي عليها أشخاص لا وصف لهم عندي سوى أنهم هياكل عظمية يغلِّفها الجلد، بعضهم يتلوّى من الألم ولا يقوى على المقاومة أو حتى تناول الطعام. وما نحن إلا أن انتقلنا بسرعةٍ عبر هذا الجناح إلى جناح النساء الذي يليه، وهو قاعة مشابهة ملأى بنسوةٍ أنهكهنَّ الهزال والضعف، يحاولن التحديق فلا يرين. وما أسرع ما اجتزنا هذا الجناح أيضاً دون توقُّف.

تساءلتُ: «هل من الممكن أن يكون ثمة مكان أكثر حاجة من هذا؟» وتواردت على ذهني حالات من أمراضٍ أشدَّ فتكاً ربما أراها بعدئذ.

دخلنا مطبخاً بدائياً تُعَدُّ فيه وجبةُ غداءٍ بسيطة من الأرزّ على موقد. عجبتُ وتساءلت: «ما حاجتهم إلى طبيبٍ في مطبخ؟». لكن الراهبة بريسيلا أخرجتني من المطبخ من بابٍ خلفي يفضي إلى ممرٍ ضيِّق. ماذا عسى أن يكون العمل الذي سيكلِّفوني بأدائه؟ تُرى هل في الخارج مرضى آخرون بلغوا من الوهن درجةً لا يقدرون معها دخولَ الدار بأنفسهم؟

أشارت الراهبة بريسيلا إلى كومةٍ كبيرةٍ من القمامة ينبعث منها النَّتَن، وقالت وهي تناولني مجرفةً ووعاءين: «عليك نقل هذه القمامة إلى مقلب النفايات، بعد عدة مبانٍ من هنا إلى اليمين، ولا يمكنك أن تخطئه». وبإيماءةٍ من رأسها وابتسامةٍ مبتسرة تركتني وتوارت.

نحن في الولايات المتحدة نتخلَّص من نفايات الطعام بطريقةٍ منظَّمة، بطرحها في مكانٍ مخصَّصٍ لهذه الغاية ملحقٍ بحوض الغسل في المطبخ. أما قصاصات الورق وقطع البلاستيك فتوضع في صناديق خاصة، بحيث تعاد معالجةُ جزءٍ منها للاستفادة منه مجدَّداً. على أن الأمر ليس كذلك في كلكتّا؛ فإن كلَّ قصاصة ورق أو قطعة بلاستيك يُعاد تدويرها غير مرة، ولا يذهب منها شيءٌ إلى القمامة أبداً. وهذا الركام الذي أمامي هو نفاياتٌ فاسدةٌ متعفّنة من الطعام ـ من مواد يتعذّر استعمالها من جديد.

بعد لحظات من الصمت والدهشة ثاب إليَّ رشدي وبدأتُ أحلِّل الأمر مستنكراً: نفايات؟ أنا طبيب! وسرعان ما شعرتُ في تلك اللحظة كأنني أتقمَّص شخصية بونز ماكوي في العرض التلفزيوني القديم Star Trek، وقلتُ في نفسي: «تباً لكِ يا بريسيلا؛ أنا طبيب ولستُ جامع قمامة!»

ومع ذلك، وضعتُ سماعتي في جيبي ورحتُ أتصدّى لذلك الركام. ملأتُ الوعاءين وتوجَّهتُ إلى حيث أرشدتني. وخُيِّل إليَّ أن كلَّ العيون في الشارع المزدحم تنظر إليَّ وأنا أنوء بتلك الأحمال في ذلك الصباح النديّ. رميتُ ما أحمل في مقلب النفايات وعدتُ لأتناول حِملاً آخر، محاولاً تجاهُل الناس الذين برزوا من جوانب المزبلة لنبش ما أضفتُه إليها توّاً.

بدأتُ أرثي لنفسي، فقد كنتُ أنتظر عندما حضرتُ إلى كلكتّا أن أقدِّم خدمةً مفيدة. أما نقل النفايات فمهمةٌ يمكن أن يؤديها أيُّ أحد. كان من الأَولى أن أكون داخل المبنى أعالج المرضى! كيف أعامَل هكذا في الهند وأنا لا أعرف من الناس أحداً يقدِّر طبقةَ المتعلِّمين كما يقدِّرها شعبُ الهند!

كان الوقت عصراً عندما انتهيتُ من نقل القمامة، وأنا أتصبَّب عرقاً، ورائحتي رائحة الركام نفسها. طرحتُ الرفش والوعاءين ورجعتُ أدراجي عبر المطبخ وجناح النساء ثم جناح الرجال ـ حيث كان من المفترض أن تُستَغلَّ خبراتي ـ متهيِّئاً للانضمام من جديدٍ إلى

أفراد مجموعتي، ومودِّعاً الأخت بريسيلا عن ذلك اليوم. وقُبَيْل ظهور الأخت، جذبَ انتباهي لافتةٌ صغيرةٌ مكتوبةٌ باليد، وبكلمات الأم تريزا نفسها تقول: «إذا لم يتسنَّ لنا تقديم أعمالٍ كبيرة، فحسبنا أعمالٌ صغيرة نقدِّمها بحبٍّ كبير».

ذاب قلبي خجلاً من نفسي. لقد أخطأتُ مقصدي تماماً وكنتُ بحاجةٍ إلى هذا الدرس، لأن خدمة الآخرين لا تقاس بمقدار ما أعرف من علوم أو بما أحمل من شهاداتٍ أو مؤهلات، بل بالمواقف ومدى الاستجابة للقيام بما تفرضه الظروف ـ بمحبة ورضاً. كذلك اخترقت الأم تريزا، عن طريق الأخت بريسيلا، الدرعَ الذي طالما اجتهدتُ في بنائه.

توطَّدت صداقتي مع الأم تريزا بعد تلك الحادثة، فغدوتُ أعمق فهماً لحياتها وإدراكاً لغاياتها. ورغَّبني ذلك في العمل معها ما استطعت، وبما أمكنني من الوسائل. أردتُ أن أتيح لغيري الفرصةَ لإدراك أن عملاً صغيراً كإزالة القمامة قد يكون أمراً ذا بال.

ولعلَّ من أغرب (وأطرف) مظاهر صداقتي مع الأم تريزا ما وقعَ لها عندما كانت في زيارةٍ لفيتنام لخدمة الفقراء في الجزء الشَّمالي من البلاد. واتفق وجود محامٍ من كانزاس سيتي في هانوي آنذاك. وفي شارعٍ مزدحم تراءى لهذا المحامي الأم تريزا مارّةً، مع أنه لم يكن قد رآها من قبل، لكن رصانة سمتها لم يكن ليخطئها أحد. عَبَرَ الرجلُ الشارعَ وعرَّفها بنفسه. حيَّته واحتفت به كعادتها دوماً، ثم سألته من أين هو، فقال إنه أمريكي من كانزاس سيتي. عندئذ بادرته بالقول: «آه»، ألم تسمع بمؤسسة «من القلب إلى القلب»

وراحت تخبره بالعمل الذي قمنا به في كلكتّا. وبذلك أثارت فضوله فاتصل بي هاتفياً لدى عودته إلى الولايات المتحدة. أعلمتُه ونحن نتناول الغداء برغبتي في إرسال إمدادات طبيّة إلى المناطق الفقيرة في فيتنام. ولم يمضِ وقتٌ طويل إلا وأُرسلت أولُ طائرةٍ أمريكية لهذا الغرض، وجرى توزيع المعونات على المشافي ولمساعدة مرضى الجذام ومخيمات اللاجئين. وقد تعهَّدتْ بنشر هذا الحدث كبرياتُ وسائل الإعلام حول العالم.

وعندما أعود اليوم بذاكرتي إلى الوراء أجد أن كثيراً من خدماتي الطبيّة للآخرين كانت نابعةً من تجربتي الشخصية في نقل قمامة المحتَضَرين ونفاياتهم. وقبل تجربتي تلك كان أداء مثل هذا العمل في جوِّ كلكتّا الرامض المنتن أمراً غير واردٍ البتَّة ولا يليق بي على الإطلاق، إذ كنتُ أظن أن قدراتي ومكانتي وخبراتي يجب أن تتوجَّه جميعاً إلى أداء أعمالٍ أخرى هي أعلى وأرفع؛ وها هو مسماعي مصداقٌ لمقالي! ثم جاءت لافتة الأم تريزا محكّاً لي: كنتُ أطمح إلى أداء أعمالٍ عظيمة، فتعلَّمتُ أن جرف القمامة بروحٍ من المحبة يختلف عن جرفها فحسب.

من هنا فقد أصاب آليوشا كارامازوف عندما قال لأخيه إيفان: «إن الحب يأتي في المقام الأول قبل المنطق؛ عندئذٍ فقط يغدو المرء قادراً على إدراك معنى الحياة»[2]. أما المنطق فكان يلقي في رُوْعي أن إمكاناتي يجب ألا تتوجَّه إلا إلى المشافي والمستوصفات. على أن الأخت بريسيلا كان لها رأيٌ آخر مخالف، كيف لا وقد تتلمذت على الأم تريزا! وهكذا أدركتُ أن ثمة أمراً آخر لا بدَّ أن يتحقَّق في نفسي أولاً، وهو أن أبدأ بالحب والرضا، في ركام القمامة.

إن خدمة الآخرين، كما أصبحتُ أراها اليوم، غالباً ما تبدأ من مستصغرات الشؤون ومما قد يبدو تافهاً، بل مستهجَناً وبغيضاً. ذاك هو الدرس الذي علَّمه السيدُ المسيح لأنصاره عندما لفَّ رداءً حول جسده وتناول جفنةً وأقبل يغسل أقدام حوارييِّه[3] لا شك أن ذلك العمل قد تطلَّب منه قوةَ احتمالٍ ومجاهدةً للنفس عظيمة وروحاً مستنيرة، وكأن لسان حاله يقول إن الأمر كلَّه يبدأ من هاهنا من القاعدة، عند النقطة التي تبرز لك منها أقذارُ العالَم كلُّها. نعم من هنا يبدأ الحب. لا أدري هل حدثَ أن اقتربتَ مرةً بوجهك من أقدام الآخرين. إنني أؤكد لك، بوصفي طبيباً، أنها مسألةٌ لا تخلو من معاناة.

ومن أعظم أسرار الحياة أن علينا، لكي ندرك حقيقة الحب والمقصد، أن نبدأ من أكثر المواضع تجافياً عن ميولنا. إن خلاصة ما حاولت الراهبةُ بريسيلا أن تُفهمنيه أنَّ ما أقدِّمه أنا إلى آخرين يعانون يجب بالضرورة أن ينطلق من أساسٍ من الحب، وإلا فقدتْ أعمالي معناها وغايتها.

وقد حملني ذلك على استحضار عبارةٍ من كتاب جيم واليس God's Politics: «لا ينال السعادةَ الأبدية إلا مَنْ نال شهادةَ تزكيةٍ من الفقراء»[4].

هذا وقد عدتُ إلى كلكتّا عدة مرات مع مجموعاتٍ من المتطوعين الذين يملأ نفوسَ كثيرين منهم الترفُّعُ والاعتدادُ بالنفس، كحالي تماماً من قبل. وما لبثوا أن انخرطوا طائعين في خدمة الآخرين.

فقد حدثَ مرةً أن كان أحدهم يُطعِم مريضاً في دار المعوزين لا يقوى على خدمة نفسه. وما هو إلا أن غصَّ المريضُ بقطعة من العظم اعترضت حلقَه فلم يكد يبتلع اللقمة، واضطربَ وفَغَرَ فاه. فما كان من المتطوع إلا أن سارعَ إلى مدِّ يده في حلق المريض واستخرج ما علق فيه.

تردّد هذا المريضُ بعد ذلك في قبول لقمة أخرى قدَّمها إليه المتطوِّع، وعبَّر عن ذلك بهزِّ رأسه. فلوحِظَ أن مريضاً آخر بجواره يعرض عليه قطعةً من اليوسفيّ كانت معه، اعتقاداً منه أنها مفيدةٌ لبلعومه المتأذّي. فانظر كيف يقدِّم حتى المحتضَرون الخدمةَ بعضهم إلى بعض.

عندها قال المتطوِّع: «عهداً عليَّ ألا أقول بعد اليوم إنني لا أملك شيئاً أقدِّمه لأحدٍ في ضائقة».

وأعرف من الناس من خاضوا تجارب كتجاربي هذه، فكانت تجاربهم سبيلاً إلى إحداث تغييرٍ في سلوكهم، فوضعوا مؤهلاتهم العلمية والمهنية جانباً وأقبلوا على مساعدة مَنْ لا يستطيعون القيام على شؤون أنفسهم. وعاد بعضُهم إلى مجتمعاتهم لينطلقوا من هناك في حملاتٍ تطوُّعيةٍ شملت العيادات والمشافي والأبرشيات المحلّية. حتى إن ابنتي، التي رافقتني في إحدى رحلاتي إلى كلكتّا مع مؤسسة «من القلب إلى القلب»، أسهمت في تنظيم النساء الجامعيات في مكان إقامتها وحثِّهنَّ على الانخراط في العمل الطوعيّ في كلكتّا إبّان عطلتهن الربيعية.

ويخبرني متطوِّعون شاركوا في أعمال الإغاثة عن طريق الجسور الجوِّية التي تقام مع كلكتّا وغيرها أنهم باتوا ينظرون إلى حياتهم اليومية بمنظارٍ مختلف. فبعضُهم يتطوَّع في بعثات الإنقاذ أو بنوك الغذاء أو العيادات الطبيّة أو القانونية، في حين يكتفي بعضُهم الآخر بملاحظة التبدُّل الذي يطرأ على زملائه. وهكذا يصبح البحثُ عن طرائق لخدمة الآخرين دأباً يومياً للناس يضفي على حياتهم معنىً وغاية. وإنني ألحظ بنفسي مدى التغيُّر في نفوس الناس وسلوكياتهم في كل مرةٍ نَمدُّ فيها جسراً جوّياً إلى منطقةٍ منكوبةٍ من العالم.

قد لا يعرف المتطوِّع بادئ الأمر كيف يستجيب للحالات التي يعاينها، غير أنه ما إن يشرع في مساعدة شخصٍ تفصله عنه بحارٌ ومحيطات حتى يدرك متطلَّبات المحتاجين في بلاده نفسها. وقد اتفق لي أن رأيتُ شخصاً يعزم على مغادرة وطنه طمعاً في أن يتيح له ذلك تقدير حاجات مجتمعه.

يُطلِعنا هنري ناوين في كتابه Adam، على سيِّدةٍ معروفةٍ من المجتمع المخملي أقرَّت بأنها برغم تقلُّبها في مظاهر النعيم وزواجها من رجال أعمالٍ مرموقين، فإن ثروتها وشهرتها وأولادها ومكانتها الاجتماعية لم تجلب لها السعادة. فالتمست نصحاً روحياً عند ناوين، وهو كاتبٌ وقسِّيسٌ معروفٌ رغب عن مراتبه ومراكزه الأكاديمية بكليَّة الدراسات اللاهوتية في كلٍّ من جامعتي ييل وهارفارد ليتفرَّغ للعمل في دارٍ للمعوقين. لم يتردَّد ناوين بنصح زائرته بتلقيم الطعام لأحد المرضى العاجزين عن خدمة أنفسهم.

وبعد سنوات عادت تلك السيدة لتخبر ناوين: «إن شيئاً عميقاً جداً قد طرأ عليَّ بعد زيارتي لك... فقد عدتُ متحرِّرةً من الكآبات التي كنتُ أعانيها قبلاً إذ أصبحت أكثر ارتباطاً بنفسي وتقديراً لبواعثي»[5]. قد يبدو أن ثمة تناقضاً في أننا لكي نستطيع إدراك أنفسنا ونُحسِن الاتصال بذواتنا الحقيقة، لا بد من أن ننسلخ عن ذواتنا ونتحرّى حاجات الآخرين، لكنني مقتنع بأن هذا هو الحل.

ثم إنني أدرك أن عملي الطبِّي يتمثَّل في علاج المرضى من الناس والسهر على صحتهم وتقاضي أجرٍ منهم على ذلك. غير أنني أدرك أيضاً أن مهنتي الحقيقية إنما تتجسَّد فيما يتجاوز حدود تقاضي أجورٍ مقابل خدماتي. ولطالما تساءلتُ: مَنْ أنا سوى أنني طبيب؟ إنني أجد الجوابَ عن هذا السؤال أجلى ما يكون عندما أعمل في مخيَّمٍ للاّجئين في تايلاند، أو أنظِّم رحلةً كشفيةً على الدراجات لابني ورفاقه من الكشافة؛ عندئذٍ تماماً أحسُّ أنني على قيد الحياة في أحسن حالاتي. بل إنني أشعر بالحياة واضحة المعالم عندما أخرج من ذاتي ودوري التقليدي في المجتمع، مثلما حدث لي عندما أُجبرتُ على العمل في دار المعوزين المحتضَرين. على أنني أجد أحياناً أن مهنتي الحقيقية تتمثَّل في طرح مسماعي الطبِّي ـ الرمز المعبِّر عن هويتي المهنية ـ وتناوُل رفشٍ للتعرُّض لركام نفاياتٍ في كلكتّا.

وربما بدا الأمرُ أولَ وهلةٍ مخالفاً للفطرة، إلا أن لافتة الأم تريزا على الجدار تؤكِّد لنا أن البداية هي هذه: قدِّمْ شيئاً صغيراً بمحبَّةٍ كبيرة. فعندما نتخلى عن رموزنا الثقافية التي تحدِّد مَنْ نحن، تنفتح

obeikandl.com

أمامنا أبواب أعمالٍ خِدميَّةٍ قد يكون الآخرون في أمسِّ الحاجة إليها. إن عائلاتنا وجيراننا ومجتمعاتنا هي أكثر حاجةً إلى عمّالٍ يخدمون ويسهمون وينطلقون، منها إلى أفرادٍ لا شأن لهم إلا أداء أدوارٍ لا يدركون منها سوى أنهم أطباء أو معلِّمون أو ضباط أو أمهاتٌ أو آباءٌ أو أرباب أعمال.

وانظرْ تجدْ مخايل شَبَهٍ بين الأم تريزا وهنري ناوين من حيث أن كليهما يترفَّع على مصلحته الذاتية في سبيل خدمة الآخرين. غير أن أكثر ما جذبَني فيهما روح الحب والاندفاع؛ فخدمة الآخرين جعلت لحياتهما هدفاً مشتركاً، بل كانت جزءاً لا يتجزّأ منها. وقد عرفتُ بالفعل أشخاصاً تركوا انغماسهم في المذاهب المادية والفردانية والحسّيّة حالما بدؤوا يتذوّقون آثار خدمة الغير. فالخدمة إذن خليقة بأن تجعلنا نرى أنفسنا جزءاً من صورةٍ كبيرة.

ويذكر ناوين، فيما يتصل بالرجل المعوق الذي يقوم هو على خدمته، أن من تعاليم آدم أن الرحمة، لا التنافس، هي السبيل إلى أداء دورنا الإنساني[6]. وكانت تلك هي الحكمة التي اكتسبها نادي الروتاري المحلّي في بلدتي عندما بدأنا نبحث عن بقاعٍ يمكننا أن نقدِّم فيها خدماتنا ـ أولاً في جمعية الشبّان المسيحيين في بيليز التي ضربها الإعصار، ثم في مشفىً يفتقر إلى العُدَّة الطبيّة في روسيا، واليوم في شتى أنحاء العالم. وتَبيَّن لنا أن نادي الروتاري قد يكون أكثر من مجرَّد مؤسسةٍ اجتماعيةٍ وتجارية، بل يمكن أن يكون ـ وقد صار فعلاً ـ مؤسسةً تمارس دورها الحقيقي الذي وُجدت له.

وكثيراً ما تساءلتُ: لماذا لا ندرك أن دورنا الأساسي في الحياة هو أن يخدم بعضُنا بعضاً، ولاسيما عندما يكون الأثرُ رضا النفس. حدَّثتني صديقتي غيل شينغلر من سان دييغو يوماً فقالت: إنها - بسببٍ من ضعف ثقتها بنفسها - أخفقت في أن تجد في ذاتها الشخصَ الذي يمكن أن يقدِّم شيئاً إلى الآخرين. وأضافت: «شعرتُ أنني بحاجةٍ إلى نوعٍ من التدريب قبل أن أنخرط في خدمة أناسٍ غير أفراد أسرتي. وكلَّما كنتُ أسمع الناسَ يتحدثون عن خدمة الآخرين أحسُّ كأن قلبي ينْزع بفطرته إلى فعل الشيء نفسه، لكنني أجهل السبيل إلى ذلك. ولم أتمكن من الانتقال إلى بلدانٍ أخرى أو تحقيق أي إنجازٍ ملحوظ، فتحقَّقْتُ من حاجتي إلى شيءٍ من التأهيل والدُّربة لأداء خدمةٍ ما، ولو من مكان وجودي».

وبينما كانت جالسةً في الكنيسة ذات صباح، أحسَّت أن الوقت قد حان لعمل شيءٍ ما. حدَّثت زوجها وصديقةً مقرَّبةً لها بالأمر، ثم زارتها صديقتُها بعد أيام. تقول غيل: «أخبرتني صديقتي أنها انتبهت من نومها في منتصف الليل على فكرةٍ استوحت منها المكان الذي عليَّ قصده؛ فقد صَحَتْ على هذه الكلمات الثلاث: بيت رونالد ماكدونالد».

وواقع الأمر أن إدارةَ مطاعم ماكدونالد توفِّر بيوتاتٍ قريبةً من المشافي لإقامة الأهالي فيها مدةَ مكوث أبنائهم المرضى في المشافي لتلقّي العلاج من السرطان وغيره من الأدواء العضالة. قامت صديقة غيل بزيارة أحد هذه البيوتات القريبة، ولاحظت أن لدى العاملين فيه

أشغالاً كثيرة وأن البيت بحاجةٍ إلى تنظيف دائم. وهذا ما حملَ غيل على زيارة أحد البيوتات المجاورة لمشفى الأطفال في سان دييغو ومقابلة مديرته.

تقول غيل: «بدت المديرةُ مرهَقة. عرضتُ عليها إمكان خدمتي في المشفى مدة ساعتين أسبوعياً، وأبديتُ استعدادي لأداء كلِّ ما يُطلب مني».

وهاهي غيل تتوجَّه صباح كلِّ يوم أحد إلى ذلك البيت لأداء أعمال التنظيف وغسل الجدران وترتيب مقاعد الأطفال. قالت بعد أول يومٍ لها في الخدمة: «البيت بحاجةٍ إلى تعاهدٍ دائمٍ بسبب كثرة مرتاديه، إلا أن الأمر يستحقُّ مني الجهد. إنني لستُ متعَبة، وأشعر أن هذا العمل هو ما كان ينبغي عليَّ القيام به».

ولنعلم أن غيل هذه أمٌّ لثلاثة أطفالٍ دون سنِّ العاشرة، وهي فنّانةٌ موهوبة ومربِّية مجازة. ومع ذلك تصرِّح دوماً أن أحبَّ أوقات الأسبوع إلى نفسها تلك الساعتان اللتان تقضيهما صباح كلِّ يوم أحد في الخدمة.

وتعليقاً على اقتباسها فكرةَ عملها هذا من صديقتها أكَّدت غيل مدى ترابط مصالح الناس بعضها ببعض، كنسيجٍ متراكبٍ تجوس خلاله، فإما أن يدهشك ويغبطك ما تجد، وإما أن يصدمك فترجع عوداً على بدء.

عندما توفيت الأم تريزا حزنتُ لفقدها، وكنتُ مقدِّراً للدرس العملي الذي علَّمَتْنيه هي وقريناتها من راهبات البرِّ والإحسان. وأقول إن إكباري لها يعيدني إلى قريةٍ صغيرةٍ في كوسوفو عملتُ منذ بضع

سنوات في مستشفىً عسكريٍّ فيها ضمن وحدة احتياط. كنتُ متمركزاً في معسكر بوندستيل، غير بعيدٍ عن مكان إقامة الأم تريزا عندما بدأت عملها في خدمة الفقراء استجابةً لباعثٍ داخلي. وهي ألبانية من أفراد الشعب الذي قدِمنا إلى كوسوفو لحمايته، علماً بأنني قمتُ بزيارة نصبٍ تذكاريٍّ لها في مدينة سكوبيه عاصمة مقدونيا حيث عاشت سنيَّ طفولتها.

رحتُ أرمق النُّصُبَ التذكاري المقام في وسط شارعٍ في سكوبيه، والبيتَ الذي عاشت فيه كذلك. وعادا بذاكرتي إلى اللافتة النفيسة التي غيَّرت مجرى حياتي: «إذا تعذَّر علينا تقديم أعمالٍ كبيرة، فحسبنا أعمالٌ صغيرةٌ نقدِّمها بحبٍّ كبير».

ووجدتُني أخوض في حديثٍ عن الأم تريزا مع أحد القساوسة في معسكر بوندستيل. وأعلمني أنها زارت المنطقة مراتٍ عدة في شبابها، وأنها وُلدت في كوسوفو ثم انتقلت وأسرتها إلى سكوبيه. وكانت ثمة قريةٌ مجاورة فيها كنيسةٌ صغيرة تتصدَّرها أيقونة للسيدة مريم العذراء، وأن الأم تريزا اعتادت وأسرتها السفر من سكوبيه إلى تلك الكنيسة كلَّ عام لزيارة هذا المكان ذي الأهمية الخاصة. بل لقد كان هذا الموقع قبل الحرب الصربية الألبانية مثابةً للناس يؤمُّها أكثر من 150,000 زائر سنوياً. ومن هذه الكنيسة الصغيرة استجابت الأم تريزا لدافع داخلي يدعوها لتقف نفسها راهبةً وخادمةً للفقراء، ومنها أيضاً بدأت الجذور الأولى لأعمال الخير الصغيرة التي تُقدَّم بمحبةٍ كبيرة تنمو وتتطور.

تاقت نفسي زيارةَ هذه الكنيسة، ولكن كيف لي ـ وأنا جندي ـ أن أنظِّم حملةً سياحيةً من هذا القبيل؟ على أن أسباباً تضافرت في ليلةٍ لعيد الميلاد وأتاحت لي الذهاب إلى هناك. فقد كنتُ يوماً أحضر صلاةَ ضوء الشموع البروتستانتية بصحبة أحد جنرالات القاعدة العسكرية. وعند انتهاء المراسم الدينية استأذنتُه بمرافقتي لحضور قداس منتصف الليل في الكنيسة نفسها، فقال إنه ذاهبٌ مع كوكبةٍ من الجنود لحضور قداسٍ في مدينةٍ أخرى، ورحَّب بانضمامي إليهم إذا رغبتُ. سألتُه عن وجهته، ولم أكد أصدِّق ما سمعته أذناي.

فقد علمتُ أن نفراً من القوات الخاصة كانوا قد نظَّموا قافلةً لنقل مجموعةٍ صغيرةٍ من الضباط إلى لتيشيا، وهي البلدة ذات الكنيسة حيث اكتشفت الأم تريزا مهنتها الحقيقية. طلبَ مني الضابطُ الاستعدادَ لمرافقتهم إذا كنتُ أرغب في ذلك، فهم مغادرون في غضون ثلاثين دقيقة.

اندفعتُ عائداً إلى المستشفى فاعتمرتُ خوذتي وارتديتُ سترتي وتقلَّدتُ سلاحي، وما أنا إلا أن التحقتُ بالرَّكب. شقَّت القافلةُ المؤلَّفة من ستّ عربات هامفي طريقَها عبر مسالك جبليةٍ ضيّقةٍ ومتعرِّجة. كانت وسائل الاتصال اللاسلكية مشوَّشة، والإجراءاتُ الأمنيةُ مشدَّدة. وعلى بُعد ميلٍ من القرية لاحت لي الأضواءُ المتوهِّجة لما يمثِّل اليوم كاتدرائيةً جميلة. توجَّهنا شطرها ثم أوقفنا عرباتنا ورَقِينا السُّلَّم المكسوَّ جليداً ونحن بلباسنا الميداني وكامل عُدَّتنا الحربية. لا أدري ماذا ظنَّ بنا الأهالي هناك، لكنهم سارعوا إلى إجلاسنا في الصفوف الأولى تحت أيقونة السيدة العذراء مباشرةً.

بدأت الصلوات عند الساعة الحادية عشرة وانتهت قرابة الثانية عشرة والنصف صباحاً. وأتاح القسُّ لعددٍ من الجنود الاشتراكَ في القداس بتلاوة مقاطع من الكتاب المقدس. والحق أني لم أشهد من قبلُ جنوداً يشاركون في المراسيم الكنسية، على كثرة ما حضرتُ في سابق أيامي من قداديس في أنحاء العالم.

عبَّرَ القسُّ في عِظَتِه عن ارتياح أهل القرية لتوقُّف عمليات القتل وسفك الدماء. وبعد انتهاء القداس كان ثمة برنامجٌ خاصٌّ للأطفال أنشدوا فيه وألقوا الشِّعر وأعادوا أداء مشهدٍ يمثِّل ميلادَ السيد المسيح.

بعد ذلك دعانا القسُّ إلى مكان إقامته لتناول شيءٍ من الحلوى والقهوة. سألتُه عن زيارات الأم تريزا للكنيسة في عهد طفولتها، فقال إنها التزمت، حتى بعد انتقال أسرتها إلى سكوبيه، بالسفر عبر الجبال في كلِّ سنةٍ لزيارة هذا الموقع ضمن مهرجانٍ ديني. وفي إبان إحدى زياراتها؛ وكانت حينئذٍ لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، أحسَّت آغنيس (وهو اسمها قبل أن تتخذ لنفسها اسم الأم تريزا) في نفسها بدافعٍ إلى الانخراط في الخدمة. وعندما أعلمتُ القسَّ بعلاقتي بها أبدى اهتماماً كبيراً واندفع خارجاً من الغرفة إلى مكتبه، وعاد وفي يده صورة شخصية لها، وأقسم عليَّ إلا احتفظتُ بها. وهكذا انتهت زيارتنا وعادت قافلتنا الاستثنائية إلى قاعدتها قرابة الساعة الثالثة صباحاً بعد قضاء وقتٍ ممتعٍ في لتنيشيا.

وكلَّما فكَّرتُ بتلك القرية الصغيرة من كوسوفو التي مزَّقتها الحرب، عجبتُ من أن تكون هي مسقطَ رأس مولودةٍ ستكون في مستقبل أيامها من أحبِّ النساء في التاريخ. ويحلو لديفيد إيكمان (من كبار محرِّري مجلة Time سابقاً) في كتابه Great Souls أن ينعتها بالشخصية التي غيَّرت وجه القرن العشرين، وهي كذلك؛ فقد أحدثت أثراً كبيراً في العالم، ونالت جائزة نوبل، وألهمت الملايين في شتى أصقاع الأرض ـ وأنا واحد منهم ـ النظرَ إلى الخدمة كأسلوبٍ للبحث عن معنىً للحياة.

إن أمام كلِّ فردٍ منَّا فرصةً للاختيار: فإما أن يختار سمّاعته الطبية وشهاداته الأكاديمية وألقابه وبزَّاته، وإما أن يختار رفشاً يؤدي به عملاً متواضعاً لشخصٍ آخر مقروناً بكل المحبة والإخلاص. وكلٌّ من الاختيارين ذو قيمة. غير أن مثال الأم تريزا ساعَدني في السعي إلى إيجاد فرصٍ للآخرين، من أمثال ابنتي، لمعاناة المهنة العميقة التي أعتقد أننا مدعوُّون إليها جميعاً بلا استثناء، ألا وهي خدمة الآخرين. إن تجربةً مع المعوزين المحتضَرين حَرِيَّةٌ بأن تزيل الغشاوات عن عيوننا، وأن تتيح لنا فرصاً للخدمة لا تنتهي في شتى ميادين حياتنا اليومية.

ما هو المبدأ الذي عاشت عليه الأم تريزا إذن؟ وماذا علَّمَتْنا حياتُها؟ علَّمتني أن أقدِّم خدماتٍ صغيرةً للآخرين، بمحبةٍ كبيرة. وآملُ أن يكون ذلك تجسيداً لِما تعلِّمه حياتي للآخرين. وللرسالة التي تسعى مؤسسةُ «من القلب إلى القلب» إلى نشرها.

ولا يُشْتَرط أن تكون البدايةُ بالضرورة تعرُّضاً لركامٍ من النفايات، بل خدمةً متيسِّرةً في متناولك.

obeikandi.com